المحاضرة التاسعة: حضارة الساحل السوري (كنعان–فينيقيا) وأهم مظاهرها الحضارية.

أولا. الموقع الجغرافي:

أطلق اسم كنعان أو فنيقيا منذ أقدم العصور على الساحل السوري (بلاد الشام)، وهي البلاد الممتدة من فلسطين حتى سوريا مرورا بلبنان، وعليه فأرض كنعان تمتد من نهر "العاصي" شمالا إلى الحدود المصرية جنوبا وبالضبط قرب مدينة "العريش حاليا"، وبهذا فموقع البلاد يعتبر جسرا بين جنوب غرب آسيا ومصر، وهو ما أدى إلى ازدهار تجاري كبير وتأثيرات حضارية متنوعة، كنتيجة حتمية للحراك البشري المستمر على هذه البلاد، لكنه من جهة أخرى قد أحدث حالة من الفوضى والحروب المستمرة للسيطرة على هذه الرقعة الجغرافية الاستراتيجية من قبل القوى العسكرية المجاورة (الفراعنة، دول بلاد الرافدين، الفرس، الحتيين، الإغريق)، وهو ما انعكس على الواقع السياسي للبلاد التي لم تتمكن من تحقيق وحدة سياسية ومركزية مستقرة.

ثانيا. أصل السكان والتسمية:

المؤكد أن بلاد كنعان كانت عامرة بالسكان منذ فجر التاريخ، وهو ما تدل عليه البقايا الأثرية التي تعود لآلاف السنين قبل الميلاد، أما الكنعانيون (الفينيقيون) فهم جزء من سكان الساحل السوري، وهم جزء من الشعوب السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى الشام وبعضها الآخر اتجه نحو العراق حوالي القرن 15 ق.م.

وهناك رأي آخر يقول أن الكنعانيون قد أتوا من الساحل الاريتيري وسواحل بلاد اليمن عبر البحر الأحمر، وهو الرأي الذي يقول به المؤرخ اليوناني "هيرودوتس" الذي يقارن نشاطهم البحري والتجاري بسكان اليمن، أما المؤرخ "سترابون" فيرى أنهم من ناحية البحرين مستدلا بتسمياتهم للمدن كجزيرة دلمون أو تسميتهم لمدينة سوسة باسم "حضرموت" وقد بدأت هجرتهم منذ القرن 30 ق. م ، في حين يعتقد المؤرخ "جوستان" أنهم وصلوا الساحل السوري عن طريق البحر الميت بعد الزلزال المدمر الذي ضرب البحيرة الآشورية، ولعله هنا يشير إلى الزلزال الذي دمر قوم لوط عليه السلام.

أما عن التسمية فقد اختلفت في أصل ومدلول اسم كنعان فمنهم من يعتبره اسم أكادي مستمد من كلمة "كناجي" والبعض يقول أنه بابلي "كناخي" ويدلان على "اللون الأحمر الأرجواني."، في حين هناك من يرى بأن تسمية كنعان قد أطلقت على البلاد الداخلية للساحل السوري وليس على الساحل.

أما عند العبرانيين فكلمة كنعان تعني بلاد الأرجوان (أو هي نسبة لجدهم الأول)، كما أن الفعل "كنع" يعني انخفض، وهو ما يدل على الأراضي المنخفضة.

أما عند المصريين فأطلقوا عليهم لقب "فنخو" التي قد تعني صناع السفن، حيث كان للمصريين علاقات وطيدة بمدينة جبيل الفنيقية التي كانوا يستوردون منها السفن، والأخشاب.

أما عند الإغريق فاستعملوا لقب "فونيكس" للدلالة على فينيقيا وهو أيضا في اللون الأحمر الأرجواني الذي ميز ألوان مختلف المصنوعات الفنيقية.

بينما الاسم العربي لكنعان فهو مستمد من الفعل: كنع – خنع التي تعني انخفض أي سكان الأراضي (البلاد المنخفضة)، وهذا ما نجده في قوله تعالى: "أ ل م، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون"

إضافة إلى الفنيقيين والكنعانيين نجد أيضا عناصر أخرى قد استقرت في بلاد كنعان في حقب زمنية مختلفة ومن هؤلاء نذكر:

1- الحيثيين: وهم من الآسيويين مثل الليديين، الميثانيين، الكاشيين، قدموا من شمال غرب عيلام، وتمكنوا من السيطرة على بابل في الألف الثانية قبل الميلاد، ثم احتلوا الساحل السوري وفلسطين، وكانت عاصمة دولتهم في الأناضول "خاتوشا"، ويسجل التاريخ الكثير من المراسلات بين ملوك الحيثيين وملوك مدينة أوغاريت القريبة من حدودهم.

2- الحوريين: جاؤوا من آسيا منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، واستقروا شمال آشور، وفي بلاد سوبارو، ثم تمكنوا من تأسيس مملكتهم الخاصة والتي عرفت بمملكة ميثاني، وعاصمتها وشوكان.

ثالثا: أهم المظاهر الحضارية الكنعانية:

1- النظام السياسي:

إن موقع بلاد كنعان كحلقة وصل بين آسيا ومصر وأوروبا قد جعلها تتعرض لعديد الغزوات والحروب وبالتالي حالة من عدم الاستقرار الدائم فمن الغرب مصر ومن الشرق الآشوريين والكلدانيين ومن الشمال الحيثيين إضافة إلى شعوب البحر (بحر ايجة من الغرب) وهو ما جعل بلاد كنعان دائما تمثل حلبة صراع بين هذه القوى المتصارعة على السيطرة، وهو ما دفع الكنعانيون لتطوير أسلحة دفاعية لحماية مدنهم هي "التحصينات" سنتطرق لها لاحقا.

أما عن النظام السياسي في بلاد كنعان فقد عرفت نظام دويلات المدن وعرف باسم بوليسpolis أو city stateعند الإغريق، وكان الاتحاد بين هذه المدن لا يتم إلا في حالة واحدة هي حالة الحرب، حيث كانت تفصل بين المدينة والأخرى مسافة سير يوم واحد، وهو ما يشكل نظام اتصال على الأغلب.

أما النظام السائد فكان النظام الملكي، وكانت ملكية دستورية أي يسير عن طريق دستور فيختار الحاكم من طبقة النبلاء (عكس العراق أين لا يهم نسب الشخص بقدر أهمية أفعاله ويختاره الإله) على أن تتوفر فيه وفي عماله جملة من الكفاءات.

كذلك عرفت بلاد كنعان بروز النظام الجمهوري بعد النظام الملكي، وتجسد هذا النظام في مدينة " صور" حوالي المائة السابعة قبل الميلاد، أين توزع الحكم إلى ثلاث عناصر (مؤسسات):

- الأشفاط (الأشباط) وعادة يكون شبطين اثنين (القاضي) (الأشراف 100)
- مجلس الشيوخ (الجيروزية) حسب أرسطو الذي استعمل المصطلحات الإغريقية وهم غالبا (التجار والكهنة)
- مجلس الشعب....

كذلك عرفت بلاد كنعان حالة الوحدة تبعا لقوة مدنها فكانت الزعامة لأوغاريت في القرن 16 ق.م، ثم جبيل في القرن 14 ق.م ثم .....ثم طرابلس حوالي القرن 4 ق.م، مع التأكيد على أن هذه الوحدة لا تتم إلا في حالة الخطر الخارجي، ولأن هذا الخطر قد تكرر كثيرا فقد حاول الفنيقيون إيجاد أوطان أخرى تكون ملجئ لهم في حالة الخطر من جهة ولممارسة تجارتهم من جهة أخرى، هذا ما دفعهم إلى المغامرة في البحر وتأسيس المراكز التجارية التي ستصبح مستوطنات ثم مدن على مختلف سواحل البحر المتوسط ومن هذه المراكز والمدن نذكر: قرطاج 814 ق. م، أوتيكا 1101 ق. م في شمال أفريقيا، قادش وليكسوس 1110 ق. م في إيبيريا وساحل الأطلسي، كاستريدس، كونورال في جنوب بريطانيا الحالية، موتيا ق. 8 ق. م، ليليبايوم، بانوراموس، سولكيس ق. 6 ق.م في صقلية، إضافة إلى العديد من المراكز التجارية المتناسقة والقريبة من بعضها بمسافة إبحار يوم كامل وفق نظام المساحلة ومنها نذكر: ثري بولي، قابس، سوسة (حضرموت)، بنزرت، هيبوريجيوس، روسيكاد، شولو، بجاية، صلداي، ايكوزيوم، تيبازة، إيول (شرشال)، تنس (كارتينا)، سيق (Siga) ..

2- النظام الاقتصادي:

اعتمد الكنعانيون على الزراعة في نطاق ضـــيق لأن العوامل الطبيعية لم تســـاعدهم وتوزعت الزراعات في السـهل وتنوعت بين الخضـر والحبوب والنخيل وزراعة السـفوح كالزيتون والكروم أو ما يعرف حاليا بزراعة المصـــاطب، واعتمدوا الزراعة بالتناوب للحفاظ على الخصـــوبة ومن أهم ما أنجازاتهم حول الزراعة "موســوعة ماغون الزراعية" لكن الإغريق هم من ترجموها كما أرادوا وجعلوها خاصة بهم، كذلك اهتموا بتربية الحيوانات والرعي.

أما عن الصـناعات فظهرت صـناعة الفخار كأقدم الصـناعات اليدوية وظهر عليها تأثر بالنموذج البابلي من حيث الزخارف والرسـومات، كذلك تطورت صـناعة الخزف بعد ظهور الدولاب تمكنوا من تطوير الخزف والفخار الرقيق، كذلك صنعوا النحاس والبرونز والقصدير والحديد، إضافة إلى اكتشاف ومحاولة تصـــنيع الفولاذ (وهو رمز للكنعانيين). كذلك اهتموا بصـــناعة الحلي والمجوهرات وخاصـــة الذهب والفضـة، وبرعوا في صناعة أطباق الزجاج وتلوينه، ومن ناحية أخرى اهتموا وبرعوا في تشييد الســـفن لوفرة خشـــب الأرز، كذلك تمكنوا من صـــناعة الأرجوان من حيوان (حلزون الميوريكس Mirex)و نظير هـذا التطور والموقع الجغرافي المميز فـإن الفينيقيين قـد ربطوا علاقـات تجـاريـة واســعة مع دول الجوار بل وغامروا في البحار والاســتكشــاف حيث تمكنوا من الوصــول إلى جزيرة كاسـتريدس، كما وصـلوا إلى غرب إفريقيا واحتفظوا بأسـرار الطريق لأنفسـهم خشـية المنافسـة. حيث اسـتورد الفينيقيون المواد الأولية الخام كالصــوف والجلود واللحوم والعســل والحبوب والتوابل والذهب والأحجار الكريمة والخيول، أما صـادراتهم فتمثلت في الخشـب والزيوت والخمور والصـناعات كالفخار والزجاج والمواد المعدنية ...

3- **الحياة الدينية:**

اقتبس الكنعانيون الديانـة من جيرانهم فألهوا قوى الطبيعـة وآمنوا بحياة ما بعد الموت. حيث عبدوا قوى الخصـــب والعذراء ومن آلهتهم "ملكارت" اله المدينة و "أشـــمون" اله الصـــحة، و "أودانيس" اله الخصب، والبعلات (إلهات النساء) فعبد الإله "بعل" اله العواصف والمطر والإله عليان ابن بعل..... من جهة ثانية تميز الكنعانيون بتقديم النذور الجنائزية والقرابين التي كانت بداية كانسـان ثم اسـتبدلت بالحيوانـات خـاصـــــة الكبش، حيث امنوا بـالحيـاة الآخرة وهذا مـا يمكن ملاحظتـه من خلال البقـايا الجنائزية والقبور التي تحوي كل ما يحتاج إليه الميت في حياته الأخرى.

4- **العمارة:**

أهم ميزة في العمارة والمدن الفينيقية هو طغيان عامل التحصـين على هذه المدن (25) ومن أهم المدن الكنعانية (الفينيقية نذكر):

 صور: هي شبه جزيرة صغيرة متصلة بالبر عبر سد (جسر) طوله نصف ميل، تقع جنوب لبنان حاليا يحيط بها حائط (صـــور) يحميها من الخارج بعد الحاجز الطبيعي (البحر)، وتزعمت المدن الفنيقية منذ القرن 10 ق. م.

 صيدا: هي مجموعة من الجزر القريبة من الساحل تقع في شمال الشريط الساحلي السوري بها مرفأ يعرف بالمرفأ المصري وهي محصنة أيضا، برزت قوتها منذ القرن 14 ق. م.

 أوغاريت (رأس الشمرة): عرفت باسم أ و ج ر أ وأطلق عليها الأكاديون إسم القلعة، جدار المدينة، هي الأقدم ربما بعد مدينة أريحا، وجدت من سبع طبقات الأعمق تعود لـ 7000 ق.م والأعلى تعود لـــــ 1000 ق.م.، ويعود تاريخ سـقوطها أمام هجمات شـعوب البحر إلى عهد الملك الأوجاريتي عمورابي 1200-1185 ق.م .

أما عن تخطيطها فتتميز بتحصينها بأسوار قوية تتخللها شبكة من الأزقة الضيقة وغير المنتظمة والملتوية لا يتعدى عرضها المترين، وبيوتها تتكون من أكثر من طابق بها باب يطل على الشارع ثم ساحة تحتوي على بئر بجانب الساحة ودرج يؤدي للطوابق العلوية (هذه بيوت الطبقة العامة).

أما الطبقة الخاصـــة فتتسـم بالاتسـاع وعثر فيها على بقايا أثاث فاخر ويحتوي على مجموعة من القصور وأبراج الدفاع الضخمة، كذلك عثر على معابد للإله بعل والإله داغون.

إضـافة إلى هذه المدن الثلاثة نجد عديد المدن الأخرى التي سـيطرت على البلاد في حقب أخرى في صورة مدينة جبيل خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، طرابلس، بيروت، عكا، ...

5-اللغة أبجدية أوغاريت :

عثر على مجموعة من ألواح الفخار في مسكن كبير للكهنة ضـمت كتابة تعود للألف الثالثة قبل الميلاد، كتبت بعدة لغات (أكادية، مصـــرية، حيثية، ولغات أخرى مجهولة في ذلك الوقت وهو ما شجع على دراستها وقد تم ذلك سنة 1929م على يد ثلاثة علماء وهم الألماني "هاتر أور" والفرنسيان " أدوارد دروم" و "تشارل فيرولوا."

حيث توصـل الباحثون إلى معرفة أبجدية أوغاريت التي تتألف من 30 إشـارة مسـمارية وكل إشـارة ترمز إلى حرف سـاكن مسـتقل عن الحروف الصـوتية كما هو الحال في الأبجدية الحديثة وبهذا

تمكنت حضارة أوغاريت من الانتقال من الكتابة المقطعية إلى الكتابة الأبجدية مثلا (داهم كانت من قبل تكتب د.هـ.م) ويتركز محتوى هذه الألواح على قوانين وأساطير ومراسلات ووصف للآلهة....

اذن فالأبجدية الكنعانية تطورت من الكتابة المسـمارية من حيث الشـكل المصـور الى الابجدية و الأبجديات الحالية مصدرها الأبجدية الكنعانية.

للأستزادة أنظر:

أولا. القرآن الكريم: سورة الروم.

ثانيا. المراجع:

1- سليمان بن عبد الرحمان الذيب: الأوجاريتيون والفينيقيون، مدخل تاريخي، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، ع. 17، الرياض، 2004.

2- ج. كونتنو: الحضارة الفنيقية، تر. محمد عبد الهادي شعيرة، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، 2001.

3- محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

4- أحمد الفرجاوي: بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1993.

5- محمد الصغير غانم: التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 2، لبنان، 1982.

6- رمضان عبده علي: تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته، ج. 1، ط. 1، دار نهضة الشرق، مصر، 2002.

7- حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته، بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.

8- ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الأول، تر. فؤاد أندروس، علي أدهم، دار الجيل، بيروت، د.ت.